الفصل الثالث

علم النفس النمائي

obeikandl.com

obeikandl.com

مراحل النمو:

يمر الفرد في حياته بمراحل نمائية متعددة، ومن الثابت علميًا أن كل مرحلة من هذه المراحل تتأثر بما قبلها وتمهد لما بعدها، أي أن النمو عملية متصلة مستمرة لا تحدث فجأة بل تتطور بانتظام خطوة إثر خطوة. ويجمع علماء النفس على أن الخبرات الاجتماعية السليمة والعلاقات المبكرة التي تتوفر للطفل في الأسرة في الخمس سنوات الأولى من حياته تقوم بدور هام في تكوين شخصيته وتشكيل سلوكه وتوافقه النفسي وصحته النفسية بوجه عام.

فالطفل يولد ولديه العديد من الدوافع والحاجات الفسيولوجية الأساسية التي لابد من إشباعها حتى يحتفظ ببقائه، كالحاجة إلى النوم، والحاجة إلى الإخراج، والحاجة إلى الطعام و...الخ. فالإنسان في المرحلة العمرية الأولى ليس له حول ولا قوة، ويستمد كل خبراته من الأسرة، وقد عبَّر المثل عن ذلك بقوله: "**لا له إيدين تمسك ولا شفايف تلملم**".

والطفل لا يولد اجتماعيًا، بل يقوم المجتمع بصقله وترويضه وتعليمه، وهو ما يسمى بعملية التطبيع الاجتماعي، فيتعلم الأبناء من الآباء والمعلمين وغيرهم الذين يمثلون ثقافة المجتمع، والتربية الاجتماعية والخلقية التي يقوم بها البيت والمدرسة هي لُب عملية التطبيع، وفي ذلك يقول المثل: "**جوزك على ما تعوديه وابنك على ما تربيه**". وعن التنشئة الاجتماعية يقول المثل: "**ابن الحرام يطلع يا قواس يا مكَّاس**"، والقواس هو حامل القوس، أي أن أصله الرديء وما كمن في نفسه من الشر مكنه من أن يعمل بالمهن التي لا يخلو صاحبها من الظلم وإعانة الظلمة.

ويرى الإمام "ابن قيم الجوزية" أن التربية والتنشئة الاجتماعية تلعب دوراً مهمًا في انحراف أو اعتدال الأخلاق، وأن ما يحتاج إليه الطفل بالفعل هو العناية بخُلقه؛ لأنه ينشأ على ما عوده المُربي في صغره[1]، والأمثال في ذلك كثير نذكر منها على سبيل التمثيل: "**أدب ابنك صغير تفرح به كبير**"، "**اضرب ابنك واحسن أدبه ما يموت إلا لما يفرغ أجله**"، "**إكسر للعيل ضلع يطلع له اتنين**"، "**اللي ما تربيه الأهالي تربيه الأيام والليالي**"، "**إن كان بدك تعرف ابنك وتسيسُهُ إعرفه من جليسه**"، "**إن كبر ابنك خاويه**"، أما من لا تفلح معه التربية ولم تأتي

(1) أنظر: تحفة المودود وأحام المولود، ص183.

obeikandl.com

بثمارها فتكون الحسرة في قلوب أبويه شديدة "ما **تبكوش على اللي خابت زرعته ابكوا على اللي خابت ذريته**"، ومهما تشتد تربية الوالدين على أولادهم لا يبلغوا معهم مبلغ الضرر "**هي القطة تاكل ولادها**".

ثم تأتي مرحلة المراهقة وهي فترة استيقاظ الانفعالات والحاجات المختلفة وظهور القدرات والإمكانات الجسمية والعقلية، وتتميز هذه الفترة في كثير من الأحوال بالقلق والثورة والشك، فهي محفوفة بالألم والأمل. ونتيجة لهذا التخبط يقول المثل الأفريقي: "**ما يراه الشيخ وهو جالس لا يراه الشاب وهو واقف**".

فهي مرحلة انتقالية بين الطفولة والرشد، ويعيش فيها المراهق في صراع دائم بين أن يعتمد على أهله أو أن يستقل بذاته، ويسعى دائمًا إلى تجريب قيم وأفكار وسلوكيات جديدة حتى يحدد هويته بالرغم من أن ذلك لا يرضي الوالدين، وهذا يعتبر طبيعياً في ضوء المرحلة العمرية التي يمر بها. وعن هذا الطور النمائي يقول المثل: "**بنت عشرة لوزة مقشرة، وبنت عشرين نزهة الناظرين، وبنت ثلاثين أم البنات والبنين**".

ويجب أن نفرق بين كلمة مراهقة Adolescence وكلمة بلوغ Puberty، فالأخيرة يقتصر معناها على ناحية واحدة من نواحي النمو، وهي الناحية الجنسية، فنستطيع أن نعرف البلوغ بأنه نضج الغدد التناسلية واكتساب معالم جنسية جديدة تنقل الطفل من مرحلة الطفولة إلى بدء النضج، وكثيراً ما تستخدم كلمة المراهقة والبلوغ على أنهما مترادفتان، وفي الحقيقة ثمة اختلاف فني في معنى اللفظين، فكلمة مراهقة تطلق على مرحلة كاملة تبدأ بالبلوغ وتستمر حتى مرحلة النضج، النضج الاجتماعي الكامل، أي فيما بين حوالي سن 12 سنة و 20 سنة. ثم تبدأ مرحلة الرجولة، وهي من أطول مراحل العمر، في هذه المرحلة يأخذ الشخص في ممارسة طاقاته ليجني ثمرة جهوده.

وبعدها تأتي مرحلة الشيخوخة، وهي مجموعة تغيرات جسمية ونفسية تحدث بعد سن الرشد وفي الحلقة الأخيرة من الحياة. ومن التغيرات الجسمية الضعف العام في الصحة ونقص القوة العضلية وضعف الحواس، يقول تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ ﴾[1]، ومن التغيرات النفسية ضعف الانتباه

(1) سورة الروم: 54 .

والذاكرة وضيق الاهتمامات والمحافظة وشدة التأثر الانفعالي والحساسية النفسية. ولذلك يقول المثل: "**من بلغ الستين اشتكى من غير علة**"، ويقول المثل البلغاري: "**لا تسأل الشيخ عن المكان الذي يؤلمه، بل عن المكان الذي لا يؤلمه**".

ويتعرض الفرد في هذه المرحلة لبعض المشكلات قد ترجع لأسباب حيوية مثل التدهور في الصحة بشكل عام، وقد تكون أسباب نفسية مثل الفهم الخاطئ لسيكولوجية الشيخوخة، فقد يفهم بعض الناس أن الشيخوخة معناها أن الشيخ المسن يجب أن يمشي متثاقلاً يتأوه طالما قد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيبًا، وهذا فهم خاطئ لهذه المرحلة، ويزيد الطين بلة أن بعض الشيوخ قد يصلون إلى هذه المرحلة وما زالت شخصياتهم لم تنضج بعد "**شابت لحاهم والعقل لسة ما جاهم**"، وقد يتصرف بعض الشيوخ تصرفات جنسية شاذة وقد يأتون سلوكًا لا يستحسن ولا يوقر شيبهم، وهنا يقول المثل: "**شايب وعايب**"، ويقول آخر: "**الشايب لما يدلَّع يبقى عامل زي الباب المخلَّع**".

وقد يعيش بعض الشيوخ وكأنهم ينتظرون النهاية والقضاء المحتوم ويتحسرون على شبابهم ولسان حالهم ينطق بالمثل "**ذكر الشباب حسرة**"، ويقول الشاعر "أبو العتاهية":

بكيت على الشباب بدمع عيني فلم يغن البكاء ولا النحيب

ألا ليت الشباب يعود يوما فأخبره بما فعل المشيب

ويقول الإمام الشافعي في ديوانه:

وعزة عمر المرء قبل مشيبه وقد فنيت نفس تولى شبابها

إذا اصفر لون المرء وابيض شعره تنغص من أيامه مستطابها

وتكره المرأة الوصول لهذه المرحلة حتى في جميع الثقافات، ولذلك كثرت الأمثال العربية والأجنبية في ذلك، فيقول المثل الإنجليزي: "**أطول خمسة أعوام في حياة المرأة هي بين التاسعة والعشرين والثلاثين**"، ويقول المثل الروسي: "**أربعون عامًا هو عمر الجدة**"، بينما السن الكبير له من يوقره ويزكيه في مجتمعات أخرى فالمثل الأسباني يقول: "**حبة العنب الجيدة تتحول إلى حبة زبيب جيدة**"، ويقول المثل المصري: "**إن دبل الورد ريحته فيه**".

وقد تباينت الأمثال في الزواج بكبيرة السن فالمثل يقول: "**من كتر همه خد واحدة قد امه**"، وفي المغرب يقولون: "**الشابة شهوة والعجوزة بلوة**"، وعلى العكس تجد المثل الأندونيسي يقول: "**تزوج دائمًا من امرأة أكبر، فلن تجوع وستستفيد من خبرتها**". وعن الزواج من كبير السن يقول المثل: "**إيش ياخد الريح من البلاط**"، ويقول آخر: "**إيش يعمل الترقيع في الثوب الدايب**".

وقليلي الإيمان ممن يصل إلى مرحلة الشيخوخة يخشى الموت فيصاب بمرض نفسي يحمل نفس الإسم "قلق الموت[1]" حتى أن لسان حاله ينطق بالمثل "**أقل عيشة أحسن من الموت**"، على الرغم من معرفته التامة بالمثل القائل: "**آخر الحياة الموت**".

الوراثة والبيئة:

إن الأمثال العربية جمعت فأوعت الصفات البشرية بعامة، إيجابية كانت أو سلبية، حتى نكاد نقول بأنه ما من صفة إنسانية يمكن أن ينعت بها الإنسان إلا وأشارت إليها الأمثال العربية؛ لنؤكد على القول بأن المثل هو الصورة الصادقة لحياة الشعوب والأمم، فيه خلاصة الخبرات العميقة التي تمرست بها عبر السنوات الطويلة من حضارتها، وهو الخلاصة المركزة لمعاناتها وشقائها وسعادتها وغضبها ورضاها، نجد في طياتها مختلف الأمثال التي تمثل حياة مجتمعها وتصورات أفرادها بأساليب متنوعة، وقيل: "ضرب المثل لم يأت إلا رد فعل عميق لما في النفس من مشاعر وأحاسيس، نتيجة للمؤثرات الشعورية التي اختفت في العقل الباطن، فجاء سلوكه تعبيرا عن عمق المؤثرات التي دعت إلى ضرب المثل[2].

والإنسان موضوع غريب في حد ذاته. فلا يكفي أن ندرس سلوكه كي نستدل عليه ولا يكفي أن نفهم بيئته كي ندركه. بل يجب علينا أن نفض بعض أسراره النفسية أولاً حتى نقترب من فهمه، ومن هنا كانت البداية بالوراثة Heredity فعامل الوراثة يلعب دوراً مهمًا في سلوك الإنسان. والعامل الثاني هو البيئة Environment في صيغتها العامة. فالبيئة

(1) أنظر: محمد غالب بركات (2011). قلق الموت في ظل الإرهاب الصهيوني. دار الآفاق العربية.

(2) يوسف عز الدين، التعبير عن النفس في الأمثال العربية. (في) الحمزاي .

openkanal.com

عنصر لا ينفصل عن الوراثة، فمنذ أن تبدأ حياة جديدة في رحم الأم تكون تلك الحياة في بيئة تؤثر تأثيرات مختلفة، تؤثر على وراثية الإنسان الجديد[1].

والوراثة هي كل الخواص التي توجد في الفرد عندما يبدأ الحياة، ولا نقصد بذلك تلك العوامل التي تكون موجودة لحظة ولادته، بل تلك التي توجد فيه منذ لحظة الإخصاب الأولى، أي قبل ولادته بتسعة أشهر[2].

فالوراثة تزود الفرد بالإمكانات والاستعدادات، واستمع إلى المثل الذي يقول: "**إبن الوز عوام**"، فهو كأبويه في السباحة، ومثله: "**فرخ البط سابح**"، وأيضاً "**بنت الفارة حفارة**"، "**من شابه أباه فما ظلم**"، وغالبًا ما تورث الطباع أيضًا، فالذئب لا يُربى ولا يُقتنى؛ لأن طبعه سيغلبه ويؤذي من رباه وأحسن إليه، والمثل يقول: "**إبن الديب ما يتربَّاش**"، فلابد للعرق أن يمتد يوما ويظهر ما كان مستور، يقول المثل: "**الأصل الرَّدن يردي على صاحبه**"، وتكتسب الأنثى الكثير من صفات الأم، حتى يقول المثل: "**بنتِ الحرَّاتة تِطلع درَّاسة**"، ويقول آخر: "**إكفي القلة على فومَّها البنت تطلع لامَّها**"، وإذا كان المثل يقول: "**العرق يمد لسابع جد**" أي أن الإنسان لابد أن يشابه أحد جدوده ولو بعدوا، كما يقولون: "**ولد لخاله**" أو "**بنت لعمتها**"، وعادة تنسب الأمور الوراثية إلى الأصل البعيد، فتقول الأم أن الولد سريع الغضب لأن أباه عصبي، والأب يقول أن ابنه عاق لأن أخوال الولد كذلك. وقد قالوا: "**قبل ما شافوه قالوا حلو زي ابوه**"، ومثله: "**قبل ما وِلدوه قالوا عريض القفا زي ابوه**". ويلخص الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه– فيقول: " **النَاسُ بِزَمانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبائِهِمْ** ".

وقد تتنحى السمات الوراثية فنجد أن "**النار بتخلف رماد**"، وأن "**أم بربور تجيب الشاب الغندور**". وقد يسخر المثل من الوراثة والتشابه فيقول "**أبوك البصل وامك التوم، منين لك الريحة الطيبة يا شوم**".

أما البيئة فهي كل العوامل التي تؤثر في الشخص منذ لحظة إخصابه. وهي مجموع

---

(1) أحمد فائق، مرجع سابق، ص48 .

(2) أحمد فائق (2003). مدخل عام لعلم النفس، ص51.

openkan.com

الظروف الخارجية والمتغيرات البيئية المحيطة بالفرد والتي تؤثر على سلوكه، ونحن أبناء الوراثة والبيئة في آن واحد، ومن ثم لا يمكن أن نفصل أثر الوراثة عن أثر البيئة؛ لأن الإنسان منذ نشأته الأولى في صورة بويضة مخصبة تبدأ الموروثات – وهي المحددات الكيماوية للوراثة البيولوجية – في التفاعل مع سيتوبلازمة الخلية وهذه نوع من البيئة، وحين تتكاثر الخلايا تؤثر كل خلية في الأخرى، وهذه بيئة خلوية أيضاً، وحين تتكون الغدد الصم فإن ما تفرزه من هرمونات في مجرى الدم شرط ضروري لنمو الجنين بأسره، ثم يولد الإنسان في بيئة مادية وأخرى اجتماعية تؤثران فيه ويؤثر فيهما طوال حياته: الأسرة والمدرسة والزملاء والأدوار الاجتماعية التي يقوم بها، وطبقته الاجتماعية، وثقافة المجتمع الذي يعيش فيه، أي أن البيئة ليست مستقلة عن الوراثة، بل يتفاعلان معًا، ليتم نمو الفرد وسلوكه وما يتسم به من صفات جسمية وعقلية ومزاجية واجتماعية شتى[1] والبيئة التي ينشأ فيها الأفراد بين ذويهم تؤثر فيهم وفي أخلاقهم ولذلك يقول المثل: "**عيب الولد من أهله**".

والشخصية تنمو كأي ضرب آخر من النمو، ونموها هو حصيلة تفاعل الميراث الفطري البيولوجي للفرد مع بيئته، خاصة البيئة الاجتماعية، حتى أن المثل يقول: "**بلاص المش ينضح مش وبلاص العسل ينضح عسل**".

والأسرة هي أصغر وحدة اجتماعية، إذ تبدأ بالزواج واختيار شريك الحياة، والرغبة في الزواج يعبر عنها المثل القائل: "**اقرصيني في ركبتي تحصليني في جمعتي**"، وعندما تتمنع يكثر خطابها، حتى أن المثل يقول: "**من كُتر خُطابها بارت مسى عليها الليل واحتارت**"، ويقول آخر: "**خطبوها اتعززت فاتوها اتندمت**"، أما التي لم تتزوج فهي تعيش على أمل الزواج "**اقعدي في عشك لما يجي اللي ينشك**". ولابد من اختيار الشريك المناسب حتى يكون بينهما توافق "**إسأل قبل ما تناسب يبان لك الردي والمناسب**".

ولتحقيق التوافق تشجع الأمثال على زواج الأقارب "**أحب ابن عمي ولو يسفك دمي**"، "**آخد ابن عمي واتنشر عليه بكمي، واخد ابن خالي واتنشر عليه بشالي**"، وعن التوافق بين الزوجين في الأدب الجاهلي يضرب المثل القائل: "**وافق شن طبقة**" و"شَنّ" رجل من العرب

(1) راجح، مرجع سابق، ص378-379 بتصرف.

Open-kan.com

خرج ليبحث عن امرأة يتزوجها، فرافقه رجل في الطريق إلى القرية التي يقصدها ولم يكن يعرفه من قبل. قال شن: أتحملني أم أحملك؟ فقال الرجل: يا جاهل، أنا راكب وأنت راكب فكيف تحملني أو أحملك؟ فسكت "شن" حتى قابلتهما جنازة، فقال شن: أصاحب هذا النعش حي أم ميت؟ فقال الرجل ما رأيت أجهل منك، ترى جنازة وتسأل عن صاحبها أميت أم حي؟، فسكت شن، ثم أراد مفارقته، فأبى الرجل وأخذه إلى منزله، وكانت له بنت تسمى طبقة. فسألت أباها عن الضيف فأخبرها بما حدث منه، فقالت يا أبت ما هذا بجاهل؛ إنه أراد بقوله أتحملني أم أحملك: أتحدثني أم أحدثك. وأما قوله في الجنازة فإنه أراد: هل ترك عقبا يحيا به ذكره؟ فخرج الرجل وجلس مع "شن" وفسر له كلامه، فقال شن: ما هذا بكلامك. فصارحه بأنه قول ابنته "طبقة". فتزوجها شن. وصار يُضرب مثلاً للمتوافقين.

كما يحذر المثل من الزواج غير المتكافئ فيقول: "**ولا تاخد ابن الأرملة ولا اللي معذب روحه سنة**"، "**خد ندك على قدك**" وبعض الصور المتناقضة لا تشير إلى حقيقة المجتمع بقدر ما تشير إلى مجموعة من المواقف المتناقضة التي لم تكن تخلو منها الحياة، فالمثل القائل: "**خدي شايب يدلعك ولا تخدي صبي يلوعك**" ليس قاعدة للعادات والسلوك في المجتمع، ولكنها مواقف خاصة تمثل وجهة نظر فردية قابلة للتغير، وفي النهاية كان المجتمع يقوم بتقويم المعوج من السلوك، ويصحح خطأ العادات التي يعتريها الشطط والجموح[1]. وقد أوصت الأمثال الرجل بزوجته فقالت: "**يا مجامل الغُرب تفتخر بيهم جامل أهل بيتك تكسب أجرهم**"، "**يا مزكّي على أهل بره زكّي على أهل جوه**".

وإذا كان الحديث الصحيح الذي رواه أبو هريرة مرفوعًا يقول: "تُنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك[2]" فتقول الأمثال: "**من عملهم تجارته يا خسارته**"، "**استعدل ولا تستعجل**"، "**يا واخد القرد على كُتر ماله بكره يروح المال ويفضل القرد على حاله**".

([1]) إبراهيم شعلان، الشعب المصري في أمثاله العامية، ص126، بتصرف.

([2]) متفق عليه. وأنظر: إرواء الغليل للألباني.

obeikandl.com

ومن الرجال من يجمع بين الزوجتين، وفي ذلك يقول المثل: "**اللي يتجوز اتنين يا قادر يا فاجر**"، والمقصود إما أن يكون قادراً على التوفيق بينهما، وإما أن يكون فاجراً أي ليس في استطاعته القيام بذلك. ولابد من الاحترام المتبادل بين الزوجين، فمن أهان زوجته وعيرها بعيوبها أهانها الناس واستخفوا بها "**اللي يقول لمراته يا عورة يلعبوا بيها الكورة**"، وهو بخلاف من يكرم زوجته فيكرمها الناس "**اللي يقول لمراته يا هانم يقابلوها على السلالم**".

أما الجمال فإن المجتمع الشعبي يحفل بالجمال الحسي، فيقول المثل: "**إن كُنت عايز تمُص قصب مُص من الوسط، وإن كُنت عايز تخطب خد رفيعة الوسط**"، وبالعكس "**اللي بعرقوبها تدبح الطير اهرب منها ما فيها خير**"، ومن صور التناقض في الأمثال بعد أن مدح الجمال الحسي، فقد سخر منه في مواضع أخرى فيقول: "**بيع الجمال واشتري خفة، الجمال كتير بس الخفيف صدفة**"، والمثل الألماني يقول: "**المرأة الجميلة تحتوي الشيطان في جسدها**".

والأسرة هي الوحدة الاجتماعية التي ينشأ فيها الطفل، ويتفاعل مع أعضائها، وهي التي تسهم بالقدر الأكبر في الإشراف على نموه، وتكوين شخصيته، وتوجيه سلوكه. ويقوم الوالدان بدور ممثلي النظام الاجتماعي في تعليم الطفل القواعد الخلقية، والقيم الثقافية، والمُثل العليا للمجتمع الذي يتربى فيه الطفل. حتى أن المثل يقول: "**إبنك على ما تربيه وجوزك على ما تعوديه**" ويتم هذا من خلال عملية التوحد "التماهي" Identification ؛ وهي الطريقة التي يتمثل بواسطتها الطفل سمات شخص آخر، ويجعلها جزءاً مكونًا لشخصيته، حيث يتوحد الطفل مع المتواجدين معه في حياته الأسرية وخاصة الوالدين[1].

ومن المسلم به أن أول مصدر للإشباع إنما هو الأم، التي تمثل علاقة الطفل بها منذ صرخة الميلاد، اللبنة الأولى للتوحد والذي يمثل أول رباط عاطفي مع الأم إبان الرضاعة، فإذا ما كان الثدي مشبعًا، يلبي في الوقت المناسب حاجة الطفل استدمج الطفل أمًا طيبة، أما إذا اضطربت العلاقة بين حاجته وتلبية إشباعها، فإن هذا البازغ الذي يتعرف على عالمه من خلال أمه وردود أفعالها سيستدمج أمًا رديئة أو غير طيبة تثقل بنيته النفسية منذ البواكير[2].

(1) محمد غالب (2009). المقامرة النفسية وعلاقتها بوجهة الضبط والعنف، رسالة ماجستير غير منشورة.
(2) حسين عبد القادر (2005). بوش الصغير في ضوء التحليل النفسي، ص31.

ولذلك يقول المثل: "**الطينة من الطينة واللتة من العجينة**"، وهو يُضرب لمشابهة الشيء للشيء، واستمع إلى المثل الذي يقول: "**أبوك البصل وامك التوم منين لك الريحة الطيبة يا مشوم**"، فما تفعله الآباء من صالح أو طالح حتمًا سيؤثر في الأبناء، وها هو المثل يقول: "**اللي يعمله الفقي في البنية يلتقي**".

أما عن مركز الأم فحدث ولا حرج، فحنان الأم لا يدانيه شيء "**اللي عند امه ما ينحملش همه**"، "**اللي من غير أم حاله يغم**"، وإذا فُقد أحد الوالدين أو كليهما "**إلعز بعد الوالدين هوان**"، وحب الأم للأبناء ليس له مثيل "**أسيادي واسياد أجدادي اللي يعولوا همي وهم ولادي**"، والإبن أو الإبنة في عين والديه ليس له مثيل "**خُنفسة شافت بنتها عالحيط قالت دي لُولِيَّة في خيط**"، ويقول آخر: "**الخُنفسة عند امها عروسة**"، "**القرد في عين امه غزال**"، لأن شفقة الوالدين ليس لها مثيل: "**قلبي على ولدي انفطر وقلب ولدي عليَّ حجر**"، وهي تعلم أبنائها وتعاقبهم أحيانًا "**اللي ما يفهم بالتلميح يفهم بالتجريح**"، "**حب ولدك بقلبك وربيه بإيدك**" ولكنها لا تتحمل أن يؤذيهم غيرها فتقول: "**أدعي على ابني واكره اللي يقول أمين**"، "**أضرب ولدي واكره اللي ما يحوشني**". فالأم أقرب ما يكون للإنسان، وهي أدرى بحاله "**أم الاخرس تعرف بِلُغى ابنها**"، "**أم الاعمى أخبر برقاده**"، وعمومًا "**اللي ربى خير من اللي اشترى**" وبالطبع لابد من احترام الوالدين، والمثل يقول: "**إللي ما يعرف ابوه ابن حرام**".

وعمومًا تلعب الأمثال دوراً اجتماعيًا ونفسيًا هامًا في ممارسات الوالدين خلال ديناميات عملية التنشئة الاجتماعية، وأنماط التربية لأبنائهم خلال مراحل نموهم المختلفة "**اللي يتعلمه الطفل من أمه يحفظه ويصمه**"، وتستمر التوجيهات الوالدية للأبناء في مراحل العمر المختلفة حتى أن المثل يقول: "**اعدل العوجة ولو في يوم فرحها**"،وذلك لأن "**من أدب أولاده قهر حساده**" هنا يقول الأبناء: "**الله يرحم المعلمة والكتاب اللي علمتنا نقرا الكتاب**".

كما أن هناك عوامل اجتماعية أخرى تساهم في تكوين شخصية الفرد، منها الإطار الثقافي العام الذي يضم القيم والمعايير الخلقية والروحية والأفكار والمعتقدات الشائعة،

والتي تختار كل طبقة اجتماعية منها ما يناسبها "**السر في السكان مش في المكان**"، كما توجد عوامل ثقافية خاصة بالطبقة الاجتماعية والأسرة والمدرسة، وهكذا.

والنظام الطبقي في المجتمع تحدثت عنه الأمثال كثيراً، فيقول المثل: "**العين ما تعلاش على الحاجب**"، ويقول آخر: "**رايح فين يا صعلوك بين الملوك**"، "**ربنا ما سوانا إلا بالموت**"، "**الناس مقامات**"، وقد تولد في النفوس كثيراً من اليأس والإحباط والقنوط، فقالوا: "**إللي يبُص لفوق يتعب**"، "**المية ما تجريش في العالي**" وكيف يتساوى من ينتمي للطبقات الدنيا مع الخاصة من الناس، وقد عبروا عن ذلك بالمثل القائل: "**إيش عرَّف الحمير بأكل الجنزبيل**"، إنه أسلوب من أساليب الصراع الطبقي، حيث تتسم هذه الطبقة بالاستعلاء، وترفض أن يتشبه بهم أحد من الطبقات الدنيا "**إن طلع من الخشب ماشة يطلع من الفلاح باشا**"، "**لو كان الإسم بيشترى كان الفلاح سمى ابنه خرا**"، وإذا حاول أحدهم النهوض "**بعد نومك مع الجديان بقى لك مطل على الجيران**" فهو محدث نعمة، ويكون المثل من نصيبه "**كنا فين وبقينا فين**"، فيرد بلسان حاله "**حطوا عليا كلكم يا للي الزمان خلاني لكم**".

وعلى الرغم من ذلك فهناك أمثال تطالب بالمساواة وتحث عليها "**كلنا ولاد تسعة**"، "**كلنا ولاد حوا وآدم**"، "**محدش على راسه ريشة**"، "**محدش احسن من حد**"، "**أحمد زي الحاج احمد**"، "**الحسن خي الحسين**[1]".

إن النظرة الاستعلائية من أصحاب الطبقة العليا إلى من دونهم كان لها حظها في الأمثال، وكأن الذوق والأدب والتربية والأصل لهم وحدهم دون غيرهم من الناس، وربما كان ذلك صحيحاً إلى حد ما، ولكن انظر إلى الكِبر في هذا المثل: "**أكرم ابن الأمارة وابن الهايفة لأ**"، وحتى لا يقلدهم أحد من العامة "**أمه عيَّاشة وعامل باشا**"، فلابد من وجود هذه الطبقية حتى تستمر الحياة "**لما انا أمير وانت أمير مين يسوق الحمير**"، ومع ذلك تجد بعض الأمثال تحث على عدم التعالي على الناس، فيقول المثل: "**حُط راسك بين الروس واوعي عليها بالقطع**"، أما الصعلوك المتبجح بما هو فوق قدره فقال فيه المثل: "**زي براغيت القنطرة عُري**

---

(1) عزة عزت، مرجع سابق، ص138 .

obeikandi.com

وزنطرة"، "**زي ديك الخمسين عريان ومزنطر**"، وأخيراً لا للتعاظم ولا للتهجم على الناس وإلا سيتحقق فيه المثل: "**زي الطبل منفوخ على الفاضي**".

إن سلوك الإنسان يرتبط إلى حد كبير ببيئته، وهو ما أكدت عليه المدرسة السلوكية، فالإنسان الذي نشأ في بيئة صالحة انعكس ذلك على سلوكه، والعكس صحيح، ولذلك قالوا: "**الأصيل يحلف ويُصدق والخسيس يحلف ويتكدب**"، وإذا كنت لا تستطيع أن تتعرف على أصله فاحكم عليه من أفعاله "**إذا غاب عليك أصله فتش على فعله**".

وإذا كان السلوك الإنساني في جملته مُكتسب من خلال عملية التنشئة الاجتماعية، فمن الممكن التغيير والتعديل، حيث إن السلوك الإنساني مرن وقابل للتعديل، وانطفاء السلوك غير المرغوب يكون بالتدريج؛ لأن السلوك الإنساني قابل للتعديل والتغيير، وفي ذلك يقول النبي-صلى الله عليه وسلم- : "حسنوا أخلاقكم". فالإنسان كائن اجتماعي يتأثر بالمجتمع الذي يعيش فيه، فتمرض نفسه أو تصح تبعًا لصلاح المجتمع أو مرضه.

وتعترف الأمثال بإمكانية هذا التغيير، وأن المجتمع يهتم بالسلوك الاجتماعي الحسن سواء كان نتيجة للتربية الحسنة (أصله)، أو من البيئة المحيطة به، فيقول المثل: "**فخر المرء بفضله أولى من فخره بأصله**". فمن حسنت أخلاقه ولانت فبها ونعمة "**الخشب اللين ما ينكسرش**".

ومع ذلك فالبعض سيء الطباع ومجبول على الأذى حتى أن النُسك لا يغيره "**إللي فينا فينا ولو حجينا وجينا**"، ومثل هذا يصعب التعامل معه "**إيش يعمل الحزِق في المزِق**"، فبعضهم قد تخصص في مضايقة الغير وإحراجهم حتى قالوا فيه "**يخش من العتبة ينَشِّف الرقبة**"، منذ لحظة دخوله يبدأ في مضايقة غيره حتى يصل إلى حد نشفان الريق، وحتى إذا على بعضهم فلا تفارقه وضاعته وسوء خُلقه، ويذكره المثل بذلك "**بعد نومك مع الجديان بقى لك مِطَلّ على الجيران**"، فـ "**الدناوة طبع**"، وذلك لأن "**ديل الكلب عمره ما ينعدل**"، وعلى الإنسان العاقل أن يتحلى بالصبر ولا ينساق وراء هذا الصنف ويذكره المثل بذلك فيقول: "**إن عضني الكلب ماليش ناب أعضه، وإن سبّني الندل ماليش لسان أسبه**".

وتأتي العلاقات بين الجماعات وهو ما يجعلنا نتحدث عن سيكولوجية الجماعة: إن جماعة الرفاق أو الأقران التي ينضم إليها الطفل منذ دخوله مرحلة الطفولة المتأخرة ومع التحاقه

بالمدرسة الابتدائية، يكونون عادة من أطفال الجيرة أو من زملائه في المدرسة. وجماعة الرفاق جماعة يدين لها الطفل والمراهق فيما بعد بكثير من الولاء ويعتز بالانتماء إليها وبالتالي يلتزم بمعاييرها وبما تراه من أساليب مستحسنة أو مستهجنة من وجهة نظرها[1].

والصداقة علاقة اجتماعية وثيقة، تقوم على تماثل الاتجاهات، وتحمل دلالات بالغة الأهمية تمس توافق الفرد واستقرار الجماعة "**صاحبك من بختك**"، "**طول مانت طيب تكتر اصحابك**"، ويقول الإمام علي بن أبي طالب –رضي الله عنه-: "**مَنْ عَذُبَ لِسَانُهُ كَثُرَ إِخْوَانُهُ**". حيث يشترك الأصدقاء في ضروب متنوعة من النشاطات والاهتمامات بالمقارنة بالعلاقات السطحية التي تتركز في أغلب الأحوال حول موضوع أو نشاط واحد[2] "**إللي يريدك ريده ومن خيرك زيده**".

"**اللي ترافقه وافقه**"، "**اختار الصديق قبل الطريق**"، "**كُل عيش حبيبك تُسُره وكل عيش عدوك تضُره**"، أما من كره الصُحبة فيكون نصيبه من المثل القائل: "**مِن فاتك فوته**"، وفي قلة وفاء الأصحاب يقولون: "**من قِلة الحنية بتنا على جفا وخدنا من بيت العدو حبيب**"، "**عُمر العدو ما يبقى حبيب وعمر شجرة التين ما تطرح زبيب**"، "**إعرف صاحبك وعلم عليه**"، وإذا لزم الأمر "**صباح الخير يا جاري انت في دارك وانا في داري**". وإذا كان الإنسان بطبيعته اجتماعيًا، فإن نجاحه في تكوين أصدقاء واستمرار علاقته معهم يُعد شرطاً من شروط تمتعه بصحة نفسية واستمتاعه بحياة لها معنى.

والأصدقاء نماذج اجتماعية يتعلم منها الفرد العديد من الخبرات والمهارات وضروب من السلوك الإيجابي والسلبي، "**إللي له عين وراس يعمل زي ما بيعملوا الناس**"، ويوضح "أحمد عكاشة" أن دور الجماعة من العوامل الهامة في نشأة العنف، فالفرد الهادئ يتحول إلى فرد عنيف تحت تأثير سيكولوجية الجماعة، وأقرب الأمثلة على ذلك ما يحدث في مباريات كرة القدم من عنف غريب عن طبيعة الشخص نظراً لتواجده في هذه المجموعة المتحمسة، فتحت تأثير الجماعة يقل التفكير المنطقي، وتبتعد القوى الاجتماعية التي تتحكم في العدوان

(1) علاء كفافي (1998). الثقافة والمرض النفسي. مجلة علم النفس. عدد 46، ص7.

(2) أسامة ابو سريع (1993). الصداقة من منظور علم النفس، ص37 بتصرف.

obeikandl.com

ومن ثم تظهر جميع الاندفاعات العدوانية المكبوتة باتجاهاتها المختلفة ناحية التحمس والعنف، فأي عمل فردي عنيف ينتشر بين الجماعة، والعنف يولد العنف، "وكأنهم يطبقون المثل القائل: **إللي يجي حينا يعمل زيِّنا**" وكذلك فمشاهدة العنف تسخدم كمؤثر في انتشار ظاهرة العنف[1]. ولذلك يقولون: "**الوحدة عبادة**"، "**الوحدة ولا الرفيق المتاعب**"، "**يا بخت من ياكل قُرصُه ويآنس الناس بحِسه**".

ولا شك أن تاريخ الإنسان كله هو تاريخ العلاقة الجدلية بين الفرد والجماعة، فالفرد والجماعة هما معًا وفي آن واحد قطبي الوجود الإنساني، فلا وجود للفرد إلا من خلال الجماعة، ولا وجود للجماعة إلا من خلال أفرادها.

فإذا كان الفرد مستبدًا فلأن الجماعة مستسلمة، وما أصدق المثل القائل: "**يا فرعون إيش فرعنك قال مالقيتش حد يردني**"، فليس هناك سلطة مستبدة دون جماعة مستسلمة، وبالمثل ليس هناك جماعة متحررة وتستطيع السلطة أن تفرض عليها القهر والاستسلام، "**إذا دخلت بلد تعبد العجل حش وارمي له**"، "**اللي ما تقدرش توافقه نافقه**"، "**ارقص للقرد في دولته**"، "**الإيد اللي ما تقدرش تقطعها بوسها**"، "**العب مع القرد لما توفى ايامه**"، "**لأجل الضرورة باقول للندل يا سيدي واقف على الباب وأقول له العفو يا سيدي**" لقد كان "محمد علي باشا" يتمتع بسلطة لا حد لها، فهو يستطيع أن يقضي على أي فرد من رعاياه بالموت دون محاكمة، وكفاه أن يحرك يده حركة أفقية بسيطة ليتضمن ذلك حكم الإعدام[2].

ولذلك فالإنسان الذي يعيش بعيدًا عن مراكز السلطة يعيش في أمان، وقد قالوا في الأمثال: "**السلطان اللي ما يعرفش سلطان**"، لقد أصبح الناس يخافون حتى من أقرب الناس إليهم "**اتكلم بإحسان احسن الحيطة لها ودان**"، والحق أننا شركاء، بل صُناع حقيقيون إذ نؤيد ونساند ونبارك بأفعالنا، وبعدم الفعل بالصمت والتخاذل والامتناع عن كلمة الحق، إنها "الأنامالية" التي تصنع الجلادين، والطاعة العمياء التي تحدث عنها المثل: "**أنا أول المنطاعين**

---

(1) أحمد عكاشة (1993). علم النفس الفسيولوجي، ص192.

(2) أنظر: فرج احمد فرج (2007). التحليل النفسي وقضايا العالم الثالث، ص168 ؛ إبراهيم شعلان (2008). الشعب المصري في أمثاله العامية، ص76.

opelkanal.com

وآخر العاصين"، "**أنا عبد المأمور**"، وكأننا نبحث عن سبب خارجي لتبرئة الذات؛ لأن "**سيف السلطنة طويل**"، حتى تولد في النفوس الخنوع للحكام لدرجة أن البعض يعتبر إهانتهم له شرف وفخر، فيردد المثل: "**ضرب الحاكم شرف**"، وكانت حيلة الضعيف الانتظار حتى يأتي الله بأمر من عنده، ولسان حاله ينطق بالمثل: "**الأسد الميت يتنفوا له شنبه**"، ثم ينتظر التغيير أملاً في الآتي وتعويضًا عن ما مضى، فيحذره المثل القائل: "**ما تفرحش في موت ابوك قبل ما تشوف جوز امك**"، أو "**ما تفرحوش في اللي انعزل إلا لما تشوفوا اللي نزل**"، فالناس فقدت الثقة في السلطان بصفة عامة، والله أعلم بالآتي، ويخشون أن يكون أشد في معاملته من سابقه "**إللي ما يرضى بحكم موسى يرضى بحكم فرعون**"، فيطلبون منه الرحمة ويقولون: "**اتوصوا علينا يا للي حكمتوا جديد إحنا عبيدكم وانتم علينا سيد**"، وأخيراً فالسلطة إفراز الجماهير، وفسادها من فساد جماهيرها، وصلاحها من صلاحهم.

الذكاء والغباء:

الذكاء Intelligence قدرة عقلية عامة، تعتبر الوظيفة الأساسية للذهن أو العقل، وتتدخل في كافة الأنشطة العقلية بدرجات متفاوتة، ومن هنا كان تسمية الذكاء بالقدرة العقلية العامة.

ويرجع الاهتمام بالذكاء والقدرات العقلية المختلفة إلى تاريخ موغل في القدم. فقد استرعت الفروق بين الناس في هذه الجوانب وانعكاساتها على مناحي السلوك المختلفة انتباه الناس. ويرجع أول قياس للذكاء والقدرات العقلية إلى القرن الثاني قبل الميلاد على أيدي الصينيين، وفي الوقت نفسه تقريبًا قدم "أفلاطون" على يد أستاذه "سقراط" في محاورة "الجمهورية" نظرية حول القدرات العقلية، يفترض فيها تقسيم البشر إلى ثلاث فئات: الحكام والفلاسفة وهم في أعلى سلم القدرات العقلية، يليهم القادة العسكريون، ويأتي العمال والفلاحون في أدنى السلم. وحسب هذا التقسيم فالذكاء محدد وراثيًا[1].

أما في الحضارة العربية الإسلامية، فربما كانت أكثر محاولات دراسة الذكاء مباشرة وعمومية هي دراسة "ابن الجوزي[2]" عن الذكاء، وذلك في كتابه عن الأذكياء، وقد ناقش

---

(1) محمد طه (2006) . الذكاء الإنساني. ص 16.

(2) هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبي الحسن علي بن محمد القرشي (510هـ/1110م-597هـ/1197م). فقيه حنبلي ومحدث ومؤرخ، ولد وتوفي في بغداد. عرف بابن الجوزي لشجرة جوز كانت في داره، ولم يكن بالبلدة شجر جوز سواها. له مؤلفات كثيرة في التفسير والفقه والحديث والتاريخ والطب.

obeikandl.com

فيه أثر البيئة والوراثة والعلاقة بين التكوين الجسمي والذكاء، إلا أن جانبين استأثرا اهتمامه:

الأول : الذكاء اللفظي، وهو ما يتجلى في الاهتمام بمعاني المفردات وإدراك الفروق الدقيقة بينها وكيفية التلاعب بالألفاظ، والقدرة على معرفة المعنى الواحد باختلاف الكلمات المعبرة عنه. ومن ذلك ما أورده بسنده من حديث مالك، إذ قال: "جاء رجل إلى النبي ﷺ يستحمله – أي يطلب منه أن يحمله على دابة بغرض الغزو والجهاد – فقال إني حاملك على ولد الناقة. قال: يا رسول الله وما أصنع بولد الناقة؟ قال: وهل تلد الإبل إلا النوق".

والثاني: هو الذكاء العملي، أو القدرة على حل المشكلات، والتي تعتمد على إدراك المشكلة وسرعة الاستجابة لها، ومن ذلك رواية "الأصمعي[1]" عن أبيه من أنه أُتي "عبد الملك بن مروان" برجل كان مع بعض من خرج عليه فقال: اضربوا عنقه. فقال يا أمير المؤمنين ما كان هذا جزائي منك. قال: وما جزاؤك؟ قال والله ما خرجت مع فلان إلا بالنظر إليك، وذلك أني رجل مشؤوم ما كنت مع رجل قط إلا غُلب وهُزم. وقد بان لك صحة ما ادعيت، وكنت خيرا لك من مائة ألف معك. فضحك وخلى سبيله.

والذكاء عند عامة الناس مرادف "للنباهة"، وهي يقظة المرء وحسن انتباهه وتفطنه لما يدور حوله، أو لما يقوم به من أعمال، "**يفهمها وهي طايرة**"، وهم يصفون بالذكاء كذلك الشخص حسن التصرف الذي يصطنع الحيلة لبلوغ أهدافه، "**يطلع زي الشعرة من العجين**"، والذي يقدر على التبصر في عواقب أعماله، "**سفيهك داريه واعمل كحك ناعم واديه**"، وإذا اضطرته الظروف تلاقيه "**فص ملح وداب**".

والذكاء من أبرز مكونات الشخصية وأشدها خطراً وأقواها وضوحًا وتأثيراً، وهو يتضح في حدة الفهم وسرعته ودقته وصوابه، والقدرة على التعلم والتحصيل الدراسي، "**الكتكوت الفصيح من البيضة بيصيح**"، والقدرة على الاستفادة من الخبرات الماضية في مواجهة المواقف والظروف والمشكلات الحالية والتعامل معها بنجاح، "**فرق شمله يخف حمله**". ويستمتع كل فرد منا بدرجة ما من الذكاء كبرت أو صغرت، ولا يوجد فرد معدوم الذكاء حتى ضعاف العقول لهم ذكاء بدرجات منخفضة. والذكاء أكثر تأثراً بالوراثة وأقل

---

(1) أبو سعيد عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع (123هـ/741م-216هـ/831م). راوية وإمام في اللغة. نشأ في البصرة وتعلم فيها القراءة والكتابة، ثم أتقن تجويد القرآن على أبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة، وهو أستاذه في سائر علوم اللغة والأدب.

تأثراً بالبيئة[1].

وعندما طبقت مقاييس الذكاء على نطاق واسع دلت نتائجها على أن الذكاء موزع بين الناس توزيعًا طبيعيًا، أي أن السواد الأعظم منهم متوسطون الذكاء، في حين أن النوابغ وضعاف العقول قليلون، فالذين تزيد نسبة ذكائهم على 140 لا يتجاوزون 1٪ من الناس، والذين تقل نسبتهم عن 60 لا يتجاوزون 1٪ أيضًا، وقد اتفق العلماء على أن: من تزيد نسبة ذكائه على 140 يعد ألمعيًا، ومن تكون نسبة ذكائه من 120 إلى 140 يعد ذكيًا جدًا، ومن تكون نسبة ذكائه من 110 إلى 120 يعد فوق المتوسط، ومن تكون نسبة ذكائه من 90 إلى 110 يعد متوسط الذكاء، ومن تكون نسبة ذكائه من 80 إلى 90 يعد دون المتوسط، ومن تكون نسبة ذكائه من 70 إلى 80 يعد غبياً جداً، ومن تكون نسبة ذكائه أقل من 70 فهو ضعيف العقل أو متخلف عقلياً، فإن كانت نسبة ذكائه من 50 إلى 70 فهو أهوك، وإن كانت نسبة ذكائه من 20 أو 25 إلى 50 فهو أبله، وإن كانت نسبة ذكائه أقل من 20 أو 25 فهو معتوه[2].

والعامة من الناس لا يفرقون بين هذه الدرجات، وإنما يعتبرون أي فرد غير طبيعي في ذكاءه غبي، وعن الغباء بصفة عامة في الأمثال يقول المثل: "**أساله عن أبوه يقولي هارون أخوه**"، ويقول آخر: "**إيش فهم الثور إني دكتور**"، "**الخايب خايب يطلع من الدنيا بلا نايب**"، "**الطول طول الباب والعقل عقل ذباب**"، وإذا كانت النسبة شديدة يقول المثل: "**ما يعرف كوعه من بوعه**"، والآخر يقول: "**نقول ثور يقول احلبوه**"، "**هبلة وماسِّكوها طبلة**"، والغبي قد "**يذبح الطاووس لجمال ريشه**"، وإذا صام فإنه "**يصوم يصوم ويفطر على بصلة**"، وعمومًا "**من جهل قدر نفسه كان بقدر غيره أجهل**".

أما الأذكياء فتقول فيهم الأمثال: "**الفطين ما يحط راسه في الطين**"، "**كل لبيب بالإشارة يفهم**"، "**ما يذبح ديكه إلا على كنز**"، فالذكي "**زي الجني يشوفك وما تشوفه**"، و "**يعرف القرد مخبي ابنه فين**"، كما أنه "**يلعب بالبيضة والحجر**".

---

(1) فرج طه، مرجع سابق، ص544 .

(2) أنظر: أحمد عزت راجح، مرجع سابق، ص 391 .

Openkan.com